السيد عبد المحسن فضل الله

عالماً من جبل العلمـــــاء

الشيخ جعفر المهاجر

أراني الآن بينكم في حضورهذا الكبير ممتلئاً بروح الشعر ، وإن لم أكن شاعراً . لأن الصفات الغُـرّ تطلب كل طاقة اللغة . ثم أن الرجال الأفذاذ مرءاة تعكس ما هو أبعد من الناظر والمنظور ، تعكس العمق الثقافي الذي اغترفوا منه ، في أبعاده الفكريّة والأخلاقيّة ، وجاءوا هم على صورته ومثاله . ولذلك فأنت عندما تتأمل في سيرتهم ترى ما هو أبعد من الشخص .

وأراني في حضرة العفّة والزهادة والورع والثبات والصدق ـ الصدق والتواضع ـ التواضع ، ولا أقول : العلم ، مع أنه من صفاته ، لأنه يأتي بعد هاتيك كلها بمسافة ، ـ أقول أراني في حضرتها عاجزاً عن كبح نفسي عن الشعور بأنني لست أمام إنسان وحده مهما يكن كبيراً . بل في الحضرة المُهيبة لجبل العلماء الفقراء : " جبل عامل " . الذي ينتمي إلينا وننتمي إليه أينما كنّا . وكأنك تراه رأي العين في هذا **العبد المُحسن** ومَن مثله يُصرّ على إعادة إنتاج عظمته باستمرار ، رغم الإستحالات والمُستحيلات : إستحالة الإحتلال وما هو من قهر وغلبة وسلب إرادة واستلاب ذات . واستحالة الإفتقار إلى العُمق ـ السند معنوياً ومادياً ، في عزّ الهرولة الشهيرة باتجاه وهم السلام . ولست أنسى إستحالة التهميش المُزمن المُتعمّد ، ومن أعراضه ، وربما من أغراضه ، النزف المُلحّ بخير أبنائه ، الذين رأيناهم ونراهم مُنتشرين في أربع أطراف الأرض . وكأنما في علاقة عكسيّة ذات معنى مُرعب مع تجمّع الشذّاذ من أربع أطرافها نفسها بجواره في الأرض المُقدّسة . وبذلك الإصرار على إنتاج العظمة وتجاوز المُستحيلات منح الأمة المُستباحَة الذات ، رُغم أنف بعضها ، نصرها الوحيد على هذا الهول العالمي الزاحف .

ونقول لمن لا يعلم ، ونُذكّر مَن يعلم ، أنه ، أعني " جبل عامل " ، اعتاد مثل هذا النصر ، وهو الذي اقتلع أسلافُنا فيه الإحتلالَ الصليبي الإستيطاني من أرضه ، بعد أن ظن أنه ملكها وأهلها ، واستقرّت به الأحوال فيه زُهاء قرنين من الزمان ، واستولد من أبنائه جيلاً بعد جيل . ونُضيف : إنه على الأثر إتجه مباشرةً نحو نهضته العجيبة ، وكأنه صاحب ثار لايشفي غليله أقلّ من طي صفحة آثار الإحتلال ، فاستولد نهضته لتكون الأداة والوسيلة لاستعادة ذاتيّته الثقافيّة السليبة . وهي هي تلك النهضة التي نراها ويراها غيرنا من أهل البحث والنظر آتية من خارج كل الشروط المألوفة والمعروفة . التي تقول أن لا نهضة في الفكر أو الأدب أو الفنون إلا بعد كفاية . وحده هذا الجبل إنتزع نهضته من قلب العوز والحرمان والحصار المعنوي والتهزيل المُتعمّد المدروس . فأضاء الشرق ، من سواحل " المتوسط " إلى حدود " آسية الوسطى " ، بنور لا يغيب . وفتح للإيمان باباً ما يزا ل ينفتح على ألف باب . وأسّس لعلاقة تكامليّة خيّرة متينة مُستديمة . هوذا عالَم الإيمان والجهاد يرتع ببركتها حتى اليوم . تستحق أن تكون درساً يُقرأه المسلمون ، كل المسلمين ، ويستعيدونه ويتمثّلونه .

كبار كهذا الذي لمّ شملنا اليوم هم سرّ وروح وقلب تلك الإنجازات الباهرة : قلعُ احتلال ذي صفة وعُمق عالميّ مرتين ، واستيلاد ا لنهضة العجب . رجال جمعوا بين الخوف من الله وبين الشجاعة ، بين العظَمة ـ وليس التعاظم ـ وبين التواضع ، بين الفقر وبين الإستغناء والعفّة ، بين محبّة البشر وكُره الباطل وأهله ، وبين اللين للناس بما رحمة من الله والصلابة في الحق ومُقارعة الباطل .

وأقول : مادام " جبل عامل " يُنبت مثل هؤلاء الرجال ، ومادام ثغراً حيّاً من ثغور الإسلام ورباطاً لمُجاهديهم علماء ومقاتلين ، ـ فنحن وهو والإسلام بخير .

* * * *

المغزى الكبير الذي ينبغي أن نخرج به من هذا التحليل والتركيب هو إستلهام هذا المزيج البديع من العظمة والبساطة ، والإصرار على إستعادته وتثبيته . البساطة التي تكتشفها عفواً ودون جُهد أو حتى دون قصد في طريقة العمل والتعامل ، وفي شبكة العلاقات التي ينسجها عالم الدين من حوله وبستعين بها في أداء وظيفته . والعظمة التي عليك أن تنتظر طويلاً حتى تراها ، لأنها لا تبدو غالباً إلا في نتائج أعماله . وهو هو ، أعني ذلك المزيج البديع ، تراث سلفنا الصالح من الباقيات الصالحات ، خصوصاً أبطال علمائنا الكبار ذوي الإنجازات الجليلة .

* * * * *

عرفتُ السيد **عبد المُحسن** رضوان الله تعالى عليه في " النجف " لعشر سنوات أو تزيد قليلاً . رجلاً لا أجد الآن ما أقوله فيه أبين عمّا في نفسي من النبوي المشهور " **أحبّكم إليّ الموطّأون أكنافاً ، الذين يألفون ويُؤلفون** " على نفس أبيّة وورع واجتهاد وحكمة وبُعد نظروطول أناة . ولقد تجاورنا في أشياء أهونها المنزل . على أنني استفدتُ كثيراً من ذلك الجوار فوائد ما أزال أجدها . وإن أنسَ فلا أنسى سعادتي برفقته من منزلينا المتجاورين ، سيراً على الأقدام ، فجر بعض الجُمُعات ، إلى الحرم العلوي المُطهّر . وممّا سمعته منه ، ومن الأحاديث التي تبادلناها في الذهاب أو الإياب ، ما يزا ل عالقاً في الذهن بكامل تفصيلاته أو أكثرها ، لأنها أخذت من بعض صفاته الجليلة .

رحم الله رجل العلم والجهاد والعفّة أبا السيد عبد الصاحب . وسدّد أبناءه الأفاضل على نهج أبيهم القويم . وجمعنا به في دار كرامته برحمته وغفرانه .

والحمـــد لله